

اختبار مفاجئ

في مساء هادئ من مساءات القاهرة، حيث الأزقة تهمس بالأسرار، كان كل شيء يبدو عاديًا. في الشقة الصغيرة بحي السيدة، تفوح رائحة الشاي بالنعناع، وتجتمع عائلة البدرى كعادتهم اليومية. خالد، الابن الأكبر، يتصفح ملاحظاته عن نظريات السينما؛ عمر يعبث بنموذج روبوت صغير؛ وليلى تتظاهر بقراءة كتاب القانون بينما يتسلل نصف انتباهها نحو التلفاز. الوالدان على الأريكة يحتسيان الشاي ويتابعان الأخبار. ثم جاء الإعلان:

"قرر مجلس إدارة العالم إلغاء إمكانية الوصول إلى جميع أشكال الفنون — بما في ذلك الموسيقى، السينما، الأدب والشعر، الفنون البصرية، وحتى التصميم — إلا لمن يجتاز اختبار التأهيل الفني الدولي." سكن الصمت المكان.

"إيه الكلام ده؟! تمتمت ليلي.

"اختبار علشان نشوف رسة حلوة؟! سقطت ملاحظات خالد من يده.

تابعت المذيعة بصوت ثابت. ظهر خلفها شعار ضخم: مجلس إدارة الثقافة العالمي.

"الهدف من هذا القرار هو التأكد من أن من يستهلك الفنون هم فقط من يقدّرونها."

أطفئ التلفاز. لم يتكلم أحد.

في الأيام التالية، تغير وجه المدينة.

صمتت الأغاني. أغلقت دور السينما. طُمست الجداريات. تم إلغاء المعارض الفنية. حتى الإعلانات في المترو اختفت.

حاول خالد النوم، دون جدوى. كانت السينما نبضه. أفلامه المفضلة أصبحت محجوبة خلف شاشة تطلب ترخيصًا.

في الليل، بدأ عمر يرسم، في صمت، دون أن يسأله أحد. وليلى؟ سخرت:

"يعني كأنهم منعوا المية! هنعيش عادي."

لكن حتى هي، أصبحت تحدّق في الجدران الفارغة.

المدينة صارت رمادية أكثر. الشوارع أهدأ. الوجوه أكثر تيهًا.

وفي أحد الأيام، جاءهم اتصال من جدتهم سلسبيل:

"تعالوا إسكندرية. البحر مستنيكم."

رحلتهم إلى الإسكندرية بدت كحلم.

مر القطار عبر أراضٍ جافة ومبانٍ نصف مكتملة. لكن الهواء، حين وصلوا، استقبلهم كصديق قديم.

جدتهم بجلابيتها البيضاء استقبلتهم بخبز دافئ وابتسامة دافئة.

في الليل، أخذتهم إلى الكورنيش. هناك، كان البحر ممتدًا بلا نهاية.

أزرقه العميق يهمس بأسرار الحضارات.

على جدار قديم، يرسم شاب جدارية بألوان دوّامة: أزرق فينيقي، أحمر أندلسي، وأصفر أمازيغي.

"البحر بيفتكر"، همست الجدة.

جلسوا بجانبه، يتأملون.

حكّت لهم الجدة عن المتوسط: مرآة الحضارات. عن الشعراء الذين سافروا من شطّ لشط، عن أغنيات اجتمعت فيها لهجات، عن منحوتات في شرفات المدن.

هذا هو المتوسط، الرابط والإلهام، الملجأ والإجابة. تجلس على شط الاسكندرية تبادل له مومك ويقابلك على الشط الآخر من اليونان من يسمع البحر همه أيضاً.

هكذا هو المتوسط، حيث الموج الذي لا يهدأ وكأنه يحكي كل القصص التي رويناها له يوماً.

وفي الليل، التقوا شبابًا من كل مكان: تونس، إيطاليا، لبنان، اليونان.

كانوا يجتمعون سرًا. يتبادلون الرسوم، يقرؤون القصائد، يعزفون ألحانًا.

قال أحدهم:

"لن نأخذ الامتحان. سنكتب إجابتنا بالفن نفسه."

فهم الإخوة.

الفن لا يُقاس باختبار. هو نبض. هو ذاكرة. هو رابط بيننا جميعاً.

عادوا إلى القاهرة دون أن يتحدثوا عن القرار.

خالد صوّر البحر. عمر اخترع جهازاً صغيراً يشغل الموسيقى. وليلى؟ بدأت ترسم الوجوه التي رأتها على الكورنيش.

دَعُوا أصدقاءهم. حَكُوا القصص. شَغَلُوا الأغاني رغم الحظر.

وفي كل مرة شاهدوا البحر، شعروا بذلك الشيء — شوقاً، إصراراً، ودفناً لا يزول.

لم يستطيعوا تغيير القانون. والامتحان ما زال قائماً.

لكن في كل ضفة من ضفاف المتوسط، كان هناك من يرسم، من يغني، من يحكي.

وكانوا، من دون أن يدروا، يجيبون على السؤال.

امتحان بلا ورقة، بلا درجة، بلا تصريح.

امتحان يحتاج قلباً يَحْن، عقلاً يتذكر، وجداناً يحمل التاريخ،

وبحرًا... يرد الصدى.